

إِذْهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ رَهْنٌ بُشِّعَ الدَّرَلَةِ بِالرُّوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بقلم الدكتور عبد الرحيم بدر (الكويتي)

سمينا من الاساتذة في المدارس ان للسد خمسة ائم او اكثر في العربية . ان الكثرة من هذا القبيل لا اعتبرها مميزة . ان المترادفات تكون لها قيمتها اذا كان هناك فرق بسيط في المعنى بين كل كلمة والكلمة التي ترافقها . كالفرق مثلا بين الكلمات المترادفة (احس) و (أشعر) و (لس) . ان لكل كلمة من هذه المترادفات الثلاثة معنى يختلف اختلافا طفيفا عن المترادفين الآخرين ، ولهذا فكل متtradf قيمته . اما المترادفات الموضوعة لاسماء الاسماء ، فقد يكون منها ما يعطي صفات معينة للاسم ، كالقوية والبطش والكبرباء والتيبة والخيلاء وما الى ذلك . ولكنني لا استطيع ان اتصور للسد خمسة ائم تحتاج الى خمسة ائم . فكثرت الاسماء المترادفة لا ارى فيها مميزة اذا كانت تحمل المعنى نفسه تماما دون اي اختلاف .

الواقع ان اللغة العربية تميز بميزة هامة عجيبة هي الاشتغال . فالكلمة الواحدة كأنها مادة لعدة مطواة تضفي وتمتد وتلوى بحيث تعطي في النهاية المعنى المطلوب منها في منتهى الدقة . فمن الفعل الماضي « فعل » يمكن ان نجد كلمات لا يستطيع حصرها امثالى من غير المتخصصين في اللغة - مثل فعل وتفاعل وتفاعل وانفعال وفاعل .

اذا اردنا التحدث عن علاقة الاسلام باللغة العربية وجب ان نعرف مميزات اللغة العربية فيما يتعلق بقدرتها على التعبير عن الفكر باشكاله . وكذلك مميزات الاسلام في مدى علاقته مع لغة التعبير ، حتى يكون في وسعنا ان نقدر اثر احدهما على الآخر ، ونسعى باللاحظة والتجربة لتأييد ما نذهب اليه . والواقع انى اذا كتبت في هذا الموضوع فان آرائي كلها ستكون مبنية على التجربة واللاحظة من بدئها الى منتهاها . فلست عالم لغة ولست عالم دين وإنما انا كاتب علم اكتبه فيه هو علم الفلك ، واللغة هي وسليتي للتعبير والدين يضع لي الحدود التي يمكن ان يصل اليها بحثي . وقد يبدو مما سأقول ان الموضوع ذاتي في صلبه ، ولكن الكتابة عن التجارب الخاصة لا يمكن ان تكون الا ذاتية الطابع ، بيد انها موضوعية الهدف .

مميزات اللغة العربية -

لقد سمعت رايا ، ووجدت بالتجربة صحة هذا الرأى ، يقول بان اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي خلقت كاملة او وجدت كاملة منذ ان عرفت . ففيها من الفنى ما لا يعرف في اي لغة اخرى - حديثة كانت او قديمة . وقد يتبدى الى الدهن ان كثرة المترادفات هو المقصود بهذا القول . فطالما

وقد فضلت اختيار الكلمة الاولى ، ووضعتها في كتاب بدائع السماء وفي القاموس الملحق به ، وقد وافق عليها الدكتور صروف وفضلها على اختلاف الزاوية المكون من مقطعين .

وفي انتهاء الترجمة كتبت اجد صعوبة في ترجمة كلمة Displacement ، وهي تعنى تغيير موضع الشيء ، واستعمالها غير قليل في الفلك . ومن السهل التعبير عنها بجملة اذا كان ذكرها لا يتكرر الا مرة واحدة . ولكنها اذا كانت تردد كثيراً فيجب ان توجد لها كلمة واحدة تعطي معناها . وقد وضعت لها كلمة (التربيح) في متن الكتاب وفي القاموس ، وقد وافق عليها الدكتور صروف ، وقال انها موفقه .

ان كلمة التربیح ، وكلمة الاترپیح ، تدلان على اصطلاحين مختلفين في الفلك ، لا علاقة للواحد بالآخر وكل كلمة منها تعطى المعنى الدقيق للشىء الذي تدل عليه ، والكلمتان مشتقتان من اصل واحد هو زربع .

نرى من هذا اتنا امام فيض من الكلمات يمكن ان نختارها من خلال عملية الاشتقاء - هذه الظاهرة الغريبة العجيبة التي تتميز بها اللغة العربية . وانني اتصور اتنا اذا امسكنا بالمصطلحات العلمية الحديثة كلها فلن نجد كلمة واحدة يمكن ان تستعنصي على اللغة العربية دون ان تجد لها مقابلاً دقيقاً جداً يعطي المعنى المقصود تماماً . وارجو من القارئ ان لا يفهم من هذا انى امهد الى فكرة ترجمة جميع المصطلحات العلمية الحديثة الى اللغة العربية بكلمات عربية صرف مستفيياً عن جميع الكلمات التي دخلت الى العربية باللفظ الاجنبي ، فتفصيل هذا سأتكلم عنه في حينه ، ان شاء الله .

اما الذي اهدف اليه هو اتنا نحن نتكلّم فيه من الخيرات ما لا يتوفّر لغيرنا من الامم . والواقع ان اللغات في الامم المتحضرة في العصر الحديث لم تستطع يذاتها ان تجارى الحضارة ومتطلباتها فلنجا بعضها الى بعض وأعتمدت على الافريقية واللاتينية وخرجت لنا بمصطلحات امكنها ان تجارى عصرها ، اما بطبيعتها فهي عاجزة حتماً . اعرف هذه الحقيقة على الاقل في الانجليزية والفرنسية . اما اللغة الروسية فمعلوماتي عنها معدومة عملياً ، الا ان اسماء بعض الاقمار الاصطناعية مثل لونا وكوزموس يدل على انها تعتمد ايضاً على اليونانية واللاتينية .

وافعل ، ومن الصفات المشبّهة والمبالغة نجد فعمول وفعال وفاعل ومحمول وفعيل وفعالة ومحفل وما الى ذلك . المهم في هذه الكلمات ان كل واحدة تختلف عن الاخرى اختلافاً بسيطاً بحيث تؤدي المعنى الدقيق المطلوب منها في الادب او العلم ، والذى تتطلب مقتضيات الحضارات المتقدمة دائماً وابداً .

ولا ضرب مثلاً واقعياً من تجربتي الخاصة .

ان العلم الحديث بعد ان ازدادت المادة التي يمكن ان يكتب فيها ، اصبح يستدعي اختصار الاسماء الطويلة ، وليس انقل على السمع من ذكر اسم آلة من الالات اذا كان يتركب هذا الاسم من كلمتين او اكثر ، خاصة اذا كان ذلك الاسم يتكرر ذكره كثيراً في البحث الواحد . وهناك آلة يستعملها الفلكيون تحلل الطيف ، واسمها في الانجليزية (Spectroscope)

وهي مكونة من مقطعين اولهما لاتيني ومعناه الطيف وثانيهما يوناني ومعناه منظار . وكتبت اترجمتها فيما اكتب من بحوث « بال محلل الطيفي » . وقد كنت اشعر بشغل هذه الكلمة اذا كان البحث يستدعي تكرارها . وقد اطلعني الدكتور فؤاد صروف على كلمة واحدة وضمنها بالاشتقاق اسماً لهذه الآلة وهي « المطياف » . وقد اعجبني الاسم ووافقت شخصياً على استعماله في كتاب بدائع السماء الذي ترجمته وقام الدكتور صروف بمراجعةه . وقد ادخلته في القاموس الفلكي الذي وضعته في نهاية الكتاب .

وهناك مثلان آخران من كتاب بدائع السماء ايضاً ، وهما بالصدفة من الكلمة واحدة من اللغة العربية .

نعرف ان العرب الذين بلغوا بحساب المثلثات درجة الكمال ، سموا زاوية النظر عند تقدير الابعاد في مثلث (زاوية الاختلاف) . وهذه الزاوية هي المعروفة الان في اللغات الغريبة باسم Parallax وهي اسم يتردد كثيراً في بحوث خاصة من علم الفلك . ولما كانت مكونة من كلمتين فان استعمالها نقيل ، كما قلنا . وفي اثناء البحث عن معناها في التواميس وجدت في قاموس النهضة لاسعمايل مظهر كلمتين اعجبت بهما ، لأن كل كلمة منهما تعطى المعنى الذي تدل عليه هذه الزاوية ، وهما « التربیح » او « التربيع » .

انما كان انتشاره وامتداده على اساس آخر - مجرد عبادات ووحدانية وقوانين عادلة وهذه بحد ذاتها دافع كبير لاعتناق هذا الدين والتسلك به ، وهى هدى من الله سبحانه وتعالى توحى لمعتقد الدين بالراحة النفسانية - ولكنها تفتقر الى الدافع العقلاني الذى أصبح مقوداً في هذه الاونة . وقد كان الدافع العقلاني في الدين ، ومجرى حاكم ظالم لا يعرف من الدين الا التقاليد التي جعلته خليفة للمسلمين هو الذى حول الطابع الحضاري للإسلام ، وجعل الحضارة الإسلامية العربية تتبع مدة طويلة من الزمن وينعدم في الواقع تقدمها هذا اذا لم تكن قد فقدت كثيراً في هذه الاونة من تراثها السابق .

وايضاً لهذا النقطة اقول ، ان الدين الإسلامي ليس مجرد عبادات صادرة عن عقيدة يؤمن بها الانسان وحده فحسب بل انها بالإضافة الى ذلك روح مجتمع يشمل الجماعات بالإضافة الى الافراد ولما كانت السيطرة في القرون الاربعة السالفة في العالم العربي لخليفة لا يرتبط بالعروبة وبخس على عرشه من الفكر الإسلامي الصحيح الذي يؤمن بالعقل ويدعو الى التفكير ، لهذا كان الضغط على هذه الظاهرة الحضارية .

وإذا جاز لنا ان نقسم في سبيل البحث المظاهر الإسلامية ، نستطيع ان نقول ان هناك ظاهرتين - ظاهرة اسلام الفرد وظاهرة اسلام الدولة او المجتمع . وللظاهرة الاخيرة الامر الاكبر في ازدهار اللغة العربية وانتشارها وقيامها بالدور المطلوب منها في تادية واجبها الحضاري .

فعلاوة عن ازدهارها في العصر الاموي والمصر العباسي الاول ، نجد انها استمرت في التقدم في العصور العباسية المتأخرة ، على الرغم من اضمحلال السلطة الزمية للخلفية العباسى . وكان في الفترات العباسية المتأخرة دوليات عديدة متفرقة في أنحاء الامبراطورية الإسلامية يحكمها أمراء مختلفون ، وبعضهم قد لا يكون عربياً . ولكننا في هذه الفترة نرى ازدهار اللغة العربية في نواحي الفكر المختلفة من ادب وفلسفة وعلوم . وقد ظهر كثير من جهابذة الفكر في هذا الوقت ، وكثير منهم لم يكن عربياً الاصل ، وإنما كان يكتب ويذكر باللغة العربية كالبيروني وابن سينا . ويمكن للباحثين في تاريخ رجال الفكر ان يجدوا الكثير من هؤلاء الذين لم يكونوا عرباً في اصلهم وإنما كانوا مسلمين مؤمنين يعيشون في اماراة تحمل الروح العربية في سلطتها

وخلال القول ان لغات الحضارة الحديثة ولدت ونميت نمواً طبيعياً ، ولما كانت ولادتها غير كاملة فقد اعتمدت في نموها على اللغات المجاورة وعلى اليونانية القديمة واللاتينية ، وتفاعلاتها الى ان وصلت الحد الذي استطاعت فيه ان تجاري المدنية التي قامت فيها . وقد تميزت هذه اللغات على الغالب ب特اعة غير متوفرة في اللغة العربية ، وهي ان كلماتها تتكون من مقاطع يحمل المقطع معنى خاصاً به ، فأخذت تستثير المقاطع من بعضها وتكون الكلمات التي هي بحاجة إليها . ولا اعتقد ان لغة من هذه اللغات ، المشابكة في مشتملها ، لها من ذاتيتها ومن طبيعتها المقدرة على مجاراة حضارة من الحضارات .

قد تكون اللغة العربية مميزات أخرى ، ولكن الشيء الذي يهمني في الواقع من حيث محسنة العلوم والأداب والفكر المتتطور هو الاشتراك والمقدرة على التغيير .

مميزات الإسلام -

وقد تكون مميزات الإسلام أكثر من ان احصيها ، إلا انني في حديثي هذا لن اطرق إلا الى مميزة هامة رئيسية ، قد تكون هي الأساس الذي تقوم عليه المميزات الأخرى - إلا وهي ان الدين الإسلامي دين العقل . فهو لا يندفع الى المادية المتطرفة ولا الى الروحانية المتطرفة ، وإنما يجعل العقل هو الحكم في جميع الامور . وهو يضع تعاليمه بناء على العقل ، ويحاطب دائماً اولى الالباب والذين يعتقدون والذين يتذمرون . وهو يحترم العلماء الذين يخافون الله هو الأساس الذي تقوم عليه حضارة امة من الأمم ، فمن المتضرر ان تنتشر هذه الحضارة وتمتد وتمرس طويسلا ، وهذا في الواقع هو الذي كان .

فقد استمرت الحضارة الإسلامية عصوراً طويلاً من الزمن الى ان جاءت الشعوبية فنخرت في عقلانية الحضارة وحوّلتها الى اي شيء آخر ما عدا العقلانية ، وجاءت عصور الظلام .

والواقع ان عصور الظلام هذه لا تعني رجوع الناس عن الدين الإسلامي ، بل قد يكون الامر بالعكس - ففي هذه العصور امتد نطاق النفوذ العثماني الى اوروبا الشرقية والوسطى ، ونستطيع ان نقول ان المسلمين قد ازدادوا عدداً . ولكن الكيفية التي اصبح الاسلام فيها كانت قد تغيرت . اجل ، اخذ الاسلام ينتشر ويمتد في هذه العصور ،

الزمنية ، ووجدوا من الطبيعي ان يتكلموا ويفكروا ويكتبوا باللغة التي حدثهم بها دينهم والتى نما بها تفكيرهم . وهذه الكتابات العربية التي قام بها هؤلاء المفكرون وكتبوها بلغة القرآن لا يمكن ان تكتفى بوصفها بأنها حضارة اسلامية فحسب بل أنها حضارة عربية ايضا . من الصعب جدا ان نفرق بين العروبة والدين في هذه الفترة من الزمن . ان الروح الموثبة المنطلقة التي جاء بها الدين الاسلامي لم يكن يستطيع ان يتكلم عنها غير لغة الدين نفسه ، هذه اللغة التي تملك ميزة الاشتغال . وبالطبع لا يمكن ان تخلو هذه الفترة من شعوبين من الكتاب حاولوا جهدهم ان يجعلوا سبب هذا الانطلاق هو الدين الاسلامي وحده ، وان يتزعموا فضل اللغة العربية او العروبة كلها من الموضوع .

ارى ان البحث الذى اطرق اوسعا من ان اوفيه حقه فى استفهام قصير كهذا فهو فى الواقع ليس الموضوع الذى تخصصت فى الكتابة فيه وقد تكون السطحية فى بحث كهذا اكثر ضررا من اغفال البحث كله .

خلاصة ما اقصد اليه فى هذا الحديث هو ان روح الدين الاسلامي اذا وجدت فى السلطة الحاكمة فإنها ستدفع باللغة العربية الى الامام ، وهذا ما يفسر لنا تفقر اللغة والفكر الاسلامي كله فى فترة الحكم الممئاني .

دلائل تقدم اللغة فى عصور ازدهارها -

سوف لا انطرب الى تقديم اللغة فى الادب والشعر والدين تاركا للمتضلعين فى هذا الشأن ايفاء الحديث حقه . ولكننى سوف اتناول ذلك بقدر ما يتيسر لي ، فافتراض ان اللغة المتقدمة فى العلم هي التى تستطيع الايصال عن المفاهيم العلمية سواء بالاسلوب او المصطلحات . ولا اظننى بحاجة الى ذكر البيان والبداع والاساليب البلاغية المتوفرة فى اللغة العربية . انا اقول ان العلوم بدات فى مطلع الدولة العباسية تترجم ، ثم اخذ يظهر من العلماء من يهضمون محتوياتها ، وسرعان ما ظهر الكندي الذى بدأ يضع الاصول لعلم البصريات وعلم الاجواء ومختلف العلوم الطبيعية ، ويدانى نجد العلم العربى الاصيل النابع من علماء فهموا محتويات الترجمى اليونانية وهضموها هضما جيدا واخذوا يزيدون عليها . وبطبيعة الحال بدات المصطلحات العلمية تظهر شيئا فشيئا ، ومع مرور الزمن ظهر فظا حل العلم فى

القرون الوسطى كابن سينا والبيروني والرازي وابن الهيثم ونصر الدين الطوسي وعبد الرحمن الصوفى . ونلاحظ فى خلال مراجعتنا بعض هذه الكتب او كلها الملاحظات التالية :

1 - المصطلحات العلمية - غير اسماء الاعلام اصبحت كلها عربية خالصة ، ويلاحظ القارئ بساطة هذه المصطلحات الجديدة الخالية من التعقيد . فلا يشك احد مثلا ، بأن عبد الرحمن الصوفى عندما وضع كتابه صور الكواكب ، كان يعرف الزوايا ويقيس ابعاد التجوم عن بعضها بهذه الوسيلة بواسطة الاسطرباب والسدس . ولكنه يذكر فى متن الكتاب اصطلاحات لا علاقة لها بالزوايا ، كالمرجع والذراع والشبر والاصبع . فيقول ان النجم الفلاني يبعد عن النجم الفلاني بمقدار ذراع مثلا . او بمعدار رمح او شبر او اصبع . ويحال القارئ للكتاب ان هذه الاصطلاحات هي مسائل تقديرية من الصوفى . والواقع غير ذلك - فالرمح فى قياساته تساوى ما يعرف الان بمسافة 14 درجة (كالمسافة التى تفصل بين نجم « بيت الجوزاء » Betelgeuse ونجم « رجل » Rigel فى مجموعة الجبار الذى يعرف ايضا بالصياد) ، والذراع هو سدس الرمح ويساوى درجتين وعشرين ثانية ، والشبر هو ثلث ذراع اما الاصبع فهو جزء من اثنين وثلاثين جزءا من الذراع .

وهذه التعبير البسيطة اذا اصبحت تدل على قياسات دقيقة دخلت نطاق العلم كمصطلحات علمية . ولا نجد ان العرب قد لجأوا الى تعبير اجنبية فى اصطلاحاتهم العلمية ، اذ كان فى لغتهم متسع لكل ما يطلبون .

2 - نجد كثيرا من الاصطلاحات مكونا من كلمتين ، مثل (اختلاف الزاوية) و (خط الزوال) . وقد تكون لهم حجتهم فى هذا الاختيار . فالكتاب قليلة ان لم تكن نادرة ، والوقت طويل لقراءة الكتاب والتمدن فيه ، على عكس هذا الزمن الذى لا يجد الانسان الوقت فيه لكي يراجع مئات الكتب فى اي موضوع يشاء .

3 - نظرا لثقة العلماء فى انفسهم كانوا يبقون الاسماء التى تدل على اعلام على ما هى عليه مع بعض التعریب . فكتاب بطليموس حافظوا على اسمه تقريبا - المخطى وكذلك اسماء المجموعات النجمية التى تدل على اعلام - مثل قيفاوس Cepheus

الحفاظ على هذا النظام هو الأساس الذي تقوم عليه الدولة ، وفي أواخر عهدهم أصبحوا يدرسون اللغة العربية التي لا غنى لهم عنها باللغة التركية . هذا الإزدجاج في شخصية الدولة بين الدين الصحيح والجنسية الحاكمة لم يؤثر في مدى انتشار الدين الإسلامي على أساس العقبة الفردية ولكنه أثر على الفكر تأثيراً كبيراً . وغدت روح الدولة إسلاماً كهنوتيًا إذا صع لنا هذا التعبير .

وكل ما استطع أن أقدمه من آيات على صحة كلامي هذا هو انعدام العلماء العرب ، أو على الأقل انعدام أولئك الذين كان يمكن أن يحدُّثوا أثراً في الفكر . وبالإضافة إلى ذلك أصبحنا نجد عجزاً في اللغة المستعملة ، ونحن حتى الآن لم نفق الأفادة الكاملة من ذلك الكابوس المزعج الذي استمر حتى أوائل القرن العشرين . فقد مرت هذه القرون الاربعة من الزمن ، والحضارة تند السير ، والآلات المختلفة تظهر إلى الوجود ، ولفتنا الفنية فيما سبق تفتقر إلى كلمة « طاولة » . هذه اللغة التي يوجد فيها للأسد أكثر من خمسين اسم لم يعد فيها اسم واحد يدل على مatum موجود في كل بيت تقريباً ، وهو ما يسمى بالعامية طاولة . هناك كلمات في اللغة العربية مثل منضدة ومائدة ، ولكن اثنين هاتين الكلمتين لا تكفيان لأنواع الطاولات الموجودة في البيوت . وفي رأيي أن هذا المatum إذا كنا سوف ننضد عليه أشياء فيجب أن يكون اسمه المنضدة ، ويتحقق لنا أن نسمي مائدة إذا كنا قد خصناه للأكل ، وهنا خلاف جديد يظهر لنا . فمن الناس من يأكلون على مائدة لا ترتفع أكثر من شبر أو شبرين عن الأرض أكثر من ذراع . فما هذه الظروف الثالثة جدير باسم المائدة ؟ وبعد ذلك كله ، فهناك طاولات متعددة الأنواع مختلفة الاستعمال ، فمنها ما يوضع في الوسط في غرفة الاستقبال ويوضع عليه الزهور ، ويكون ارتفاعه أكثر من ذراع ، ومنها ما يؤدى الغرض نفسه ويكون ارتفاعه حوالي شبرين فقط ، ومنها ما يكون صغيراً جداً توضع عليه علب التبغ ومنفضة السجائر ، ومنها ما يكون طويلاً جداً صغير المساحة يوضع في زاوية الغرفة لكي يوضع عليه أصنافه شجرة صغيرة ، ومنها ما يخصص لكتابه ، وقد يكون في هذا النوع درج أو لا يكون . ويستطيع المتلوس أن يجد أصنافاً عديدة جداً أكثر مما ذكرت . ليس لهذه الأغراض في اللغة العربية الجديدة اسماء . حتى « طاولة » فهي ليست كلمة عربية .

الذى يسميه الصوفى والبىرونى قيقاوس ، ولا ادرى كيف وقعا فى هذا الخطأ مع انه اسم ملك فى الاساطير اليونانية ، ولكن ارجح ان اعجم العروف بالتنقيط فى تلك الايام كان فيه مجال كبير للخطأ . ومثل برشاوش Perseus وقسطورس Centauris لم ينسوا ان يضعوا بجانبها اسمها الأجنبى . فالشلبيات او السلحفاة لم ينس البىرونى ان يضع بجانبها اسمها الأجنبى الورا Lyra . وفي كتاب صور الكواكب للصوفى طبعة دائرة المعارف العثمانية بخider اباد الدكن يذكر اللوزا (باعجم الراء) ولا ادرى اذا كان ذلك نتيجة خطأ مطبعى ام ان الصوفى يقصد ذلك ، للسبب نفسه الذى تقدم ذكره عند الخطأ فى اسم قيقاوس .

اعتقد ان ثقتهم بعلمهم وتمكنهم منه هو الذى جعلهم يتصفون غيرهم من العلماء الذين سبقوهم ، وهم لا يرون عاراً فى استعمال كلمات أجنبية اذا كانت لها قيمةها فى اسطورة من الاساطير وفي اسم شهير .

ونتيجة لذلك كله ، وضع العرب طبعهم على العلم كله ، ووصلينا من ذلك على الأقل اسماء النجوم التي بقيت عربية حتى الان . وانى اقول انهم لن يصلوا إلى هذه الدرجة الا بروح الاسلام التي كانت طاغية في العصور التي ازدهر فيها العلم . وتقرير حقيقة بهذه دون اثباتات وبراهين تفصيلية قد لا يكون لها وقها المطلوب في التفوس التي تبحث الحقائق بحثاً موضوعياً . ولكنى كما قلت فيما سبق اكتب مجرد ملاحظات رأيتها في تجربتى الخاصة ، اما التفصيل فاتركه للمؤرخين والباحثين في التواریخ .

عصور الانحطاط -

وفي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي احتل العثمانيون القسطنطينية ، واخذوا يتسعون في امبراطوريتهم شيئاً فشيئاً وسيطروا على كل العالم العربي وغير العالم العربي ، ورواوا انهم ماداموا يدينون بالاسلام فيجب ان تكون لهم الخلافة ، وامكنتهم تحقيق ما ذهبو اليه . ولكنهم كانوا يتكلمون اللغة التركية العاجزة عن ايفاء الحضارة حقها ، ولم يستطع ايمانهم بالدين الاسلامي ان يجعلهم يتخلدون من اللغة العربية لساناً . واصبحت لغتهم في الواقع خليطاً عجباً من العربية التركية واللغة التركية . واصبح

والدوامة الحضارية التي رماها فيها المستعمرون دعت إلى ظهور أخطاء كثيرة لا أود أن أذكر منها غير امرئ يلتفتان الانتباه ، فلست في مجال تعداد الأخطاء - :

1 - أصبح كثير من المثقفين يؤمنون بالحضارة الغربية إيماناً يستصرخون به ما انتجه الحضارة العربية ولا يكادون يصدقون أن العرب كانت لهم كشوفهم وإن آثارهم لا تزال واضحة في العلم الحديث ، والفلك بالذات . ولهذا كانت تمر في بعض الكتب القديمة اغلاقات مستفربة . ففي كتاب « كيف ترقب السماء » ، تأليف برانلى ، وترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندي ، نشر مؤسسة فرانكلين - نجد أن نجم « مراق » يصبح اسمه « مراك » ، ونجم الدبة يصبح اسمه « دبى » فهو يكتب بالإنجليزية Dubhe ونجد أن نجم المزر والذى يسمى أيضا بالعناق يصبح اسمه مizar ، فهو يكتب بالإنجليزية Mizar والواقع أن أسماء النجوم كما يقول أطلس Norton's Star Atlas في الطبعة الرابعة عشرة سنة 1959 ، صفحة 52 « وكثير من أسماء النجوم والمعاني ليس لها لفظ ثابت ، فهى محرفة أو مشوهه عن اللغة العربية . فنجم ارنب يلفظ ارنب وارنب (بفتح التون او كسرها ونجم كف قد يلفظ كف وتشف ... الخ) »

على أية حال ، فإذا كان هناك خلاف في اللفظ في كثير من أسماء النجوم ، فمما لا شك فيه أن العروض تدل دلالة كبيرة على الاسم على الأقل لأنه يكتب في اللغة العربية دون شكل ، ومن السهل أخذ الحروف الصامته من الكلمة الانجليزية وتترك حروف الطلة التي تقابل الحركات . وكلمات مثل دبة ومزر ومرافق لاتحتاج إلى كثير من الجهد لكي يظهر أصلها العربي .

ولكن هناك كلمات كثيرة أخرى كاد التشويه يفقدها أصلها العربي ، ويلقى عباء معرفة أصولها على ما يقوم به الباحثون المتخلعون المختضون ، ويجب أن أذكر بهذه المناسبة أبحاث الدكتور عدنان الخطيب التي اطلعت على قسم منها شخصياً ، وهي بلا شك تدل على مجده كبير . وبالمثل يجب أن أشير إلى المساعدات التي يحاول أن يرسلها إلى الدكتور محمد هيشم الخطاط - وكلاهما من دمشق . (الدكتور الخطيب عضو المجمع العلمي والدكتور الخطاط استاذ في كلية الطب) .

والغرب من ذلك كله ، إن كلمة « طاولة » كما يbedo مأخوذه عن الأجنبية Table وهذه بدورها ماخوذة عن اللغة العربية طبلية . وفي قاموس المجد الطبعة الثامنة - (الطبليه) دراهم الخراج، ج طبلات . والعامة تستعملها لنضدة مستدرقة مثل الطبل يرق عليها الخبز او يؤكل عليها او نحو ذلك . وبناء على هذا تكون بضاعتنا قد ردت علينا بشكل لم نعد نتعرف عليه ولم يعد يتعرف علينا .

وقد استمر الانحطاط طوال هذه الفترة التي اسميها بالعصور المظلمة . ولو لا القرآن الكريم والدين الذي كان يدرس باصوله في المعاهد الدينية كالازهر الشريف بالذات ، لعلم الله ما كان في الامكان ان يحدث للغة العربية . انى ارجح ان يكون مصدرها الى الزوال والى الحفظ في بطون الكتب الائريه ، لاسيما وقد سبق لغيرها من اللغات التي كانت لسان حضارات عظيمة ان الت الى هذا المصير - والاغريقية القديمة واللاتينية مثلان على ذلك .

وقد بدأ الشعب العربي يتممل منذ القرن الماضي ، وما انتهى الكابوس الترکي حتى بدأت النهضة الحديثة التي لا تزال حتى الآن في بدايتها . ولكنها بداية غريبة حقا . انها بداية تعتمد على اسس عديدة يختار لها الفكر ويضع فيها . فمن الناس من يرى ان تعتمد على لفتنا وديننا ونستأنف السير في الحضارة على هذا الاساس ، ومنهم من يرى ان اللغات الغربية التي أصبحت تفوق العربية حاليا في غناها ، هي التي يجب ان تكون على الاقل لغة الدراسة العلمية ، ومنهم من يرى الانصراف الى الاداب الغربية وتعريتها ولا يهم شكل اللغة التي سيتم فيها هذا التعریب ، بل وصلنا الى امور هي في متناول الفرابة - فهناك دعوات الى ترك اللغة العربية الفصحى كلها واستعمال اللغة العامية ، ولما كان في الشعوب العربية حوالي خمسين او ستين لغة عامية تختلف الواحدة عن الاخرى كان من المفهوم الضمني الدعوة الى تقسيم العرب الى هذا العدد او اكثر من الفئات وتحتخص كل فئة بلقتها العالمية ويصبح لها ادبها الخاص و تستغني عن كل التراث العربي القديم الذى لم تعد له أهمية في نظر هذه الفئات . وهناك دعوات اخرى منها كتابة العربية بالحروف اللاتينية وهذه لا استطيع ان ابدي فيها رأيا لأن قراءاتي عنها لم تكن مستوفة .

على أية حال ، فقد بدأت العربية تنشط كلغة معبرة عن المواضيع التي تطرقها ، ولكن الاسس المهمة

عملاً . فائز ترجمة بهذه لا يمكن ان يعتبر جهلاً في الترجمة ، لأن من جهل الترجمة يعطي المعنى الخطأء الذي فهمه ، ولكن القضية كلها استهان باللغة العربية وبالقراء العرب . أنها صرخة تقول « اذا اردتم ايها العرب ان تفهموا عبرية جوجول ، ولا احد يشك على ما اعتقاد بعقريته ، فعليكم ان تقراؤه في لغة اخرى غير العربية . »

على اية حال ، فان الاسفاف الذى نجده غزيراً فيما ينشر في الاسواق الان ليس دليلاً على عجز اللغة العربية ، واداً تبعنا طبيعة الناشر او هدف الكاتب من انتاجه نجده في الغالب بعيداً كل البعد عن الروح العربية وعن الطابع الاجتماعي الذي قامت بنشره الحضارة الاسلامية بظہور الدين الاسلامي .

بداية النهضة الحديثة في لبنان :

يجب ان لا تستغرب بداية النهضة الادبية والعلمية الحديثة في لبنان البلد العربي الذي تكثر فيه المسيحية ، وان تكون الريادة في هذا الميدان لاخواننا المسيحيين بالذات . فقد كان لبنان يوضعه الاجتماعي والديني اكثراً البلدان العربية اتصالاً بالغرب . وبناء على ذلك فقد اتيحت لهم الفرصة لكتاب المذهب الفقلاني الذي اخذت الحضارة الغربية تسير عليه ، ورواوا من واجبهم ان يبحثوا لنفسهم ويكتبوا بها الادب والعلم ، بناء على الاساس الجديد . وقد ظهر من الاباء اليسوعيين ومن غير الاباء اليسوعيين من لبنان ومن قدموا للغة العرب والادب ما لا يجب ان يفمط حقه . واذا كان لي ان اشيد بشيء فان الناحية العلمية التي هي من اختصاص بعوثي هي التي يجب ان اذكرها . وachsen هنا بفضل آل صروف ومجلة المتنطف . فقد قاموا بمجهود جبار في نقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية بقالب عربي ووضعوا اصطلاحات عربية جديدة وحاولوا احياء كثير من العلوم العربية والاصطلاحات العربية .

ولكن الذي يؤسف له حقاً ان مجدهم كان مجهوداً فردياً ، اذ ما انقطعت مجلة المتنطف عن الصدور حتى وجدنا ان الحركة كلها قد وقفت في هذا الاتجاه ، وبدأت في الواقع حركة النهضة في اتجاه آخر ، هو الاتجاه الغربي المحسن . فقد ازدهرت دراسة العلوم لكن بطابعها الغربي وفي الجامعات التي تدرس باللغات الغربية ، حتى ان معظم الدراسات العلمية كانت تهدف في الواقع الى الكتب

2 - الخطأ الثاني الذي اود ان اشير اليه هو اندفاع بعض من يكتبون الى اعمال اللغة العربية كوسيلة للتعبير اهتماماً بشكل يبعث الحيرة والاستغراب . ومن المعروف ان اللغة العربية على الاقل ان لم تزد في قدرتها على التعبير على اية لغة اخرى فانها لا تقل عنها . ولا انكلم خاصة عن الصرف والنحو واستعمال العربية الصامية او الفصحى ، وانما اعني المقدرة على التعبير باى شكل من الاشكال . وسوف لا اضرب مثلاً من الادب السوقي الرخيص ، بل من الادب العالمي المترجم الى العربية . واعنى بذلك كتاب « النفوس الميتة » للكاتب الروسي نيكولاي جوجول ، وقد يكون هذا الكتاب أشهر نص ادبى كلاسيكي روسي .

لقد نشرت دار اليقظة العربية السورية هذا الكتاب في سلسلة عيون الادب العالمي وطبعته طباعة جيدة وقام بترجمته انطون حمصى ويوسف بنا . ومن المفروض اننا نقرأ نصاً ادبياً قد لا يحسن الكاتب روعة الاداء ولكنه على الاقل يعطينا معنى من المعنى ، ولكننا في الترجمة المذكورة في الصفحة 12 عندما نقرأ التعليق على وصف السائق سليمان نجد ما يلى:

« ولكن الرجل الروسي ... يفخر بأنه يحافظ على علاقاته الاجتماعية بهزيمة بسيطة لكونه اوبرايس ، ولذلك فان الكاتب ليس بمطمئن لأجل بطلنا بنصيحة مدرسية ساذجة ، وقد يمكن لشل نصائح البلاط ان تتنازل للمعرفة ولكن هؤلاء الذين وصلوا الى مرتبته العامة بقوه الدسائس ، ليس من نصيبهم بالطبع الا نظرة احتقار من القارئ او ما هو ابداً من ذلك ، اعني السير قريباً منه ، دون اي اختلاف عن مشية القاتل ، اجل كل هذا محزن جداً ولكن فلنندعه ولنعد الى تشيشيكوف فيقول (ص15):

« وان الكاتب ليعلم بأن هذا ليس من السهولة بمكان ، بل انه لاسهل علينا ان نرمي بالوان عديدة على قطعة من نسيج قشر القنب بكل سخاء . كانت عيناه السوداوتان (كما) تشعان باللمب ... الخ » ويستمر المترجمان في الحديث بجملة اخرى يقولان فيها انه « اشقر الشعر بعيدين زرقاوين (كما) » قد لا يستحق هذا الكلام كل هذا التعليق ، ولكن الكتاب يعتبر نصاً ادبياً وهو موجود في مكاتب كثيرة كمرجع عن الادب الروسي الكلاسيكي ، وقد طبع الكتاب لكي يكون كذلك . ولو شئت ان ارمي بالوان عديدة على قطعة من قشر القنب بكل بخل لا دركت ان اللغة العربية أصبحت اعجز من ان تؤدي

ولكن اللغة العربية في الكليات الأدبية وفي المعاهد الدينية تزدهر وتنمو، والقرآن حافظ أمين لها . إنها لا تعجز الآن عن إداء المعانى والمصطلحات في جميع الفروع الثقافية – ما عدا العلوم . فالى متى سوف يستمر هذا التناقض بين دراساتنا العلمية والأدبية ؟ وهل سنبقى بلفتين أو باكثير ، العربية للأداب والشئون الثقافية الأخرى ، والإنجليزية أو الفرنسية لشئون العلم ؟

مجهودات مشكورة –

الواقع أن جعل اللغة العربية لغة العلم لا يمكن أن يحدث إلا إذا أصبحت لغة التدريس في الجامعات . واظن أن الجامعة السورية يجب أن تحوز على قسط وافر من الثناء بهذا الخصوص . فالإساتذة الذين يدرسون فيها يبحثون وينتقبون عن أصول الكلمات العربية ويستعينون بالجامع العلمي في هذه المهمة ويخرجون لنا بنتائج هو ذخر في الواقع . وكثرة الكتب التي تظهر في هذا الميدان هي التي سوف تقرر رسوخ هذه الكلمات والمصطلحات . الواقع أن الاصطلاح أو التعبير إذا وضع مجردا لم تكن له قيمة إلى أن يستعمل . وكثرة الكتب العلمية التي تنشر هي التي ستكون حافزاً لواضعيها لكي يجدوا التمايز والمصطلحات المناسبة لما يكتبون .

وإذا أخذنا العلم مجرداً من الحضارة الغربية وأصبحنا ندرسه في جامعاتنا باللغة العربية وزاد تمسكنا بالروزاج الاجتماعية الإسلامية المقلالية الإنسانية فانتابنا باذن الله واجدون لغة غنية فباضة تقفينما عن كل لغة أخرى .

مصادر البحث :

- 6 – بدائع السماء – تأليف جيرالد هوكتن – ترجمة عبد الرحيم بدر .
- 7 – كيف ترقب السماء – تأليف فرنكلين برانلى – ترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندي
- 8 – النقوش البيضاء – تأليف نيكولاى جوجول – ترجمة انطون حمصى ويوسف بنا .

Cassell's Latin Dictionary

– 9

Webster's New World Dictionary

– 10

Norton's Star Atlas

– 11

المهني الحرفي الذي يستفيد منه المرء شخصياً ، وتنتهي الدراسة في العادة بالوصول إلى هذا الغرض . أما البحوث العلمية التي تهدف إلى زيادة المعرفة أو إلى خدمة المجتمع ككل فلم تكن نجد لها اثراً ظاهراً ، لأن التخطيط للمجتمع والموارد الرئيسية للبلد لم يكن من هم الحكومات التي كانت معظمها تحت السيطرة الاستعمارية .

على أية حال : حتى بعد استقلال الدول العربية لم تجر محاولات جدية لجعل اللغة العربية لغة العلم إلا في جامعة دمشق . إذ أصبح الطابع الفربي هو القابل على حضارتنا .

القياس الجديد

لا زوال بعد نهضتنا التي مر عليها أكثر من نصف قرن لا نعرف في الواقع أين نحن . فديننا الإسلامي يشدهنا إلى الروحانية والعقلانية والأنسانية من ناحية ، ولكن الحضارة التي قدر لنا أن نجد لها إمام اعیننا هي حضارة غريبة بطبعها المادي المتفيف . أنها عقلانية ولا شك من حيث أنها تستعمل العلم والذكاء والتجربة بكل عبرية وفن . ولكن هدفها هو المادة وهو يهزا بالأنسانية والشعور الإنساني . وبين الدين والحضارة التي نعيشها نجد انفسنا ضائعين . فهل تستعمل اللغة العربية في علمنا ؟ وهل نترك اللغات الأجنبية التي أصبحت مفاهيمنا جزءاً منها ؟ وكيف يمكن أن نبدأ من جديد ؟ وما الفائدة من الرجوع إلى العلماء العرب ما دامت الحقائق التي ذكروها أصبحت قديمة؟ وكيف لنا أن نضع مصطلحات جديدة لآلاف المصطلحات التي أصبتنا نعرفها بسهولة في أصولها الأجنبية ؟ بل إننا وصلنا إلى درجة أصبح الكثير منا يجد أن اللغة العربية أعجز من أن تفي بهذه المتطلبات .

مصادر البحث :

- 1 – المنجد – الطبعة الثامنة – للاب لويس ملوف اليسوعي .
- 2 – القاموس المحيط – لمجد الدين الفيروزبادى
- 3 – قاموس النهضة – لاسماعيل مظہر .
- 4 – صور الكواكب الثمانية والاربعين – لأبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الرازي المعروف بالصوفي .
- 5 – القانون المسعودي – لأبي الريحان محمد ابن احمد البيروني .